الفصل السادس

أبو عبيد والمثنى في العراق

كان أبو عبيد بن مسعود الثقفى أول منتدب للعراق . لذلك ولاّه عمر إمارة الجند فيه ، وأمره بالسير إليه متى تم تجهيز جيشه . أما المثنَّى بن حارثة فعجّله عمر وقال له : « النجاء حتى يقدَم عليك أصحابك ! » ، وامتطى المثنَّى جواده ورجع أدراجه يريد الحيرة . وجعل وهو فى طريقه إليها يذكر أياماً خلت فى خلافة أبي بكر ، حين قضى العلاء بن الحَضْرمى على الردّة فى البحرين ، فانضم هو إليه وقعد بكل طريق للمرتدين المنهزمين الذين يعيثون فى الأرض فساداً ، ثم سار مشاطئاً الخليج الفارسى يقاوم دسائس الفرس ، ويقضى على أنصارهم من القبائل حتى بلغ مصب الفرات . عند ذلك أمدّه الصدّيق بخالد بن الوليد ، فسار المثنى تحت لواء القائد العبقرى يدوّخ معه جيوش كسرى وتفتضّ جنودهما الأمصار ، وتفتح الحيرة والأنبار وعين التّمْر وغيرها من البلاد ، حتى يبلغ خالد الفراض على تخوم الشام من شمالى العراق .

ويستقرّ الأمر بخالد فى أرض الأكاسرة ، ويغتبط المثنَّى بما فتح الله عليهم من ذلك ، ويقيم مع قواته بالحيرة وبأرض السواد أكثر من سنة ، ثم إذا أبو بكر يأمر خالداً بالمسير إلى الشام يتولى فيه إمارة الجند لمقاتلة الروم . ويفصل خالد من العراق فى عدد من خيرة رجال الجيش فيه ، فيخشى المثنَّى العاقبة ، ثم يفتح الله عليه فيقهر هرمز جاذويه على أطلال بابل ، ويرتد إلى الحيرة يتحصن بها ، ثم يستمد أبا بكر بمن ظهرت توبتهم من أهل الردة . ويبطئ الخليفة عنه لاشتغاله بأمر الشام ، فيسير المثنَّى إلى المدينة ، فإذا الصدّيق مشفٍ على الموت ، ثم إذا الله يختاره إليه ، وإذا عمر يتولى الأمر من بعده ، فيندب الناس مع المثنَّى ويجعل أبا عبيد على رأسهم .

لم ينس المثنى وهو يذكر هذه الحوادث ماساد بلاط فارس من الاضطراب فى أثنائها ، وما أوهن هذا الاضطراب من قوة الفرس وشدّ من عزم المسلمين . لقد حكم الأكاسرة الفرس وحكموا عرب العراق حكماً مطلقاً لا معقِّب لكلمتهم فيه . وكان كسرى أبرويز هو الذى قتل أبا قابوس النعمان بن المنذر وقضى على ملك اللّخْميين بالحيرة ، وهو الذى حارب الروم

وغلبهم ، وامتد ملكه فى أرضهم إلى بيت المقدس وإلى مصر . فلما تولى هِرَقْل أمر الروم ، قاتل كسرى وردّه على أعقابه . واغتبط العرب واغتبط الفرس الذين برموا ببطش كسرى لما حلّ به . فلما ثار به ابنه شيرويه وقتله ، اختلف أمراء الفرس وانقسم رأيهم فيما أصابه . وصار شيرويه فى الفرس سيرة حمق وغرارة جعلت أهل بلاطه يبرمون به ، وجعلت كل طامع فى العرش يحالف من الأمراء من يعاونه لبلوغ غرضه . وقُتِل شيرويه ، فجعل هؤلاء الطامعون يقتتلون فيقتل بعضهم بعضاً ، جهرة حيناً ، وغيلة حيناً ، ثم يتولى صاحب الغلب منهم الأمر شهوراً حتى يُقتل . لذلك تعاقب على العرش فى أربع سنين تسعة من الأمراء . لاعجب وذلك هو الأمـــر أن تضعف قوة الفرس وأن ينهدّ ركنهم ، فتدور الدائرة عليهم فى الغزوات التى دارت بين العرب وبينهم .

وتنبّه أهل فارس لما جرّه الاضطراب عليهم من فساد أمرهم فملّكوا عليهم شهريران بن أردشير وتعاهد أمراؤهم على معاونته . وعرف شهريران مسيرة خالد بن الوليد من العراق إلى الشام ، فكان إجلاء المسلمين عن العراق أول ما استقـر عليه عزمه . لكن المثنّى قهر قائده على أطلال بابل فحمّ فمات .

خلفت دُخْت زَنان ابنة كسرى أخاها على العرش . لكنها ضعفت عن النهوض بالأمر فخلعت ، وتولى سابور بن شهريران الملك مكانها . واستوزر سابور الفَرُّخْزاد ، وأراد أن يزوّجه آزَرْمِيدُخْت ابنة كسرى ، فساءها أن يتزوجها عبدها ، فدست عليه سِياوَخش الفاتك فقتله فى مخْدَعها ليلة عرسه ، ثم سارت معه فى أعوانها إلى سابور فحصرته وقتلته . ورأى المثنّى أن يواجه الفرس وبلاطهم مضطرب ، فاستمد أبا بكر فأبطأ عليه ، فذهب بنفسه إلى المدينة يستعجل المدد . وهاهو ذا فى طريقه عائد إلى الحيرة . ترى ألا يزال الفرس فى اضطرابهم فلا شىء أيسر من الظفر بهم ؟ أم تراهم اطمأن ملكهم ، فلا بد للظفر بهم من قوات كثيرة العدد والعدّة .

بلغ المثنّى الحيرة ، فكان أول سؤاله عما يجرى فى بلاط فارس ، وعلم أنهم شُغلوا عن المسلمين فى أثناء غيبته باختلافهم . ثم علم أن بُوران ابنة كسرى تعمل على جمع كلمتهم . وكانت بوران أميرة ذات حكمـــة ، فكان الفرس كلما اختلفوا رضوا حكمها واطمأنوا إلى عدلها . فلما قَتَل سياوخش الفرّخزاد ، وجلست آزَرْمِيدخْت على العرش ، اختلف أهل فارس ، ورأت بوران أن لاسبيل إلى مصالحتهم . هنالك بعثت إلى القائد رستم بن الفرخزاد من أنبأه بمقتل أبيه واستحثه على السير إلى المدائن . وكان رستم حين ذاك على فُرَج خُراسان ،

وكان قائداً بارعاً ، فأقبل فى جنده مسرعاً يريد المدائن . ولاقى فى طريقه إليها جيوشاً لآزرميدخت فهزمها . ثم حاصر المدائن وحصر آزرميدخت وسياوخش فيها . وظفر بعدوه فدخل العاصمة ، وقتل سياوخش ، وفقأ عين آزرْميدُخْت ، وأقام بوران على عرشها،وتولت بوران السلطان فى فارس على أن تملكه عشر حجج ، ثم يكون الملك فى آل كسرى : فى الرجال منهم إن وجدوا وإلا فى النساء . واستوزرت بوران رستم ، وأطلقت يده فى أمور الدولة ، وجعلته على الجند ، وأمرت أهل فارس أن يسمعوا له ويطيعوا .

عرف المثنّى ذلك كله وهو مقيم بالحيرة لايستطيع شيئاً إزاءه . لقد نحُف جيشه فلم يبق فى مقدوره أن يهاجم حتى يجيئه أبو عُبيد ، وقد أقام أبو عبيد بالمدينة شهراً بعد المثنى يجهز جيشه ويتجهز للسير به . فلما أتم تجهيزه استأذن عمر فى السير فأذن له بعد أن أعاد عليه النصح أن يسمع من أصحاب النبى وأن يشركهم فى الأمر ، وأن يشاور سليط بن قيس لجرأته وتجربته . وكان لعمر بسليط ثقة ، حتى لقد قال لأبي عبيد : « إنه لم يمنعنى أن أؤمّر سليطاً إلا سرعته فى الحرب . وفى التسرع إلى الحرب ضياع إلا عن بيان . والحرب لايصلحها إلا المَكِيث » . وسار أبو عبيد فى الجند ، حتى إذا بلغ العراق ألفى المثنى قد انسحب من الحيرة إلى خفّان على حدود البادية .

ذلك أن رستم كان رجلا جريئاً طموحاً ، يثير طموحه إعجابَ الفرس وتعلُّقهم به . وطموحه هذا هو الذى جعل المؤرخين يذكرون أنه كان عالماً بالنجوم ، وأنه رأى فيها مآل فارس . وأنه سئل كيف يتولى أمرها وهو يرى فى النجوم مايرى ، فقال : الطمع وحب الشرف .

وما لبث حين أمّرته بوران أن كتب إلى دهاقين السواد يأمرهم أن يثوروا بالمسلمين . ودس فى كل رستاق رجلا يثير أهله ، ثم بعث جنداً لمصادمة المثنّى . وانتشرت أوامره فى الناس ، فثار أهل العراق من أعلاه إلى أسفله بالمسلمين . وبلغ المثنى نبأ ماحدث ، ورأى أن لاقِبَل لجنوده بلقاء من عبّأهم رستم لمصادمته ، فآثر الحذر وانسحب من الحيرة إلى خفّان حتى لا يؤتَى من خلفه . وأدركه أبو عبيد بخفّان فنزل فى الناس ليريحوا ظهورهم وأقام يتدبر خطته لمهاجمة القوات التى جاءت تنازله .

كان رستم قد بعث فى المدائن جيشين يواجهان المسلمين ، جعل على أحدهما القائد جابان ، وأمره أن يتخطى الفُرات إلى الحيرة ، وجعل على الآخر القائد نَرْسِى وأمره أن يعسكر بَكَسْكر بين الفرات ودجلة ، وكان أبو عبيد قد خرج من المدينة فى أربعة آلاف ثم

اجتمع إليه فى الطريق عدد عظيم زاد جندَه إلى عشرة آلاف . فلما جمّ الناس خرج يلقى جابان ، فالتقيا بمكان يقال له النمارق بين الحيرة والقادسية . والتقى الفريقان واقتتلوا قتالا شديداً أظفر الله فيه أبا عبيد بجابان وجنوده . وأسر جابان وأسر قائد تحت إمرته يدعى مردانشاه ، وقَتل هذا الأخيرَ مَنْ أسره . أما جابان وكان شيخاً كبيراً ، فخدع الذى أسره إذ قال له : « إنكم معشر العرب أهل وفاء ، فهل لك أن تؤمِّنى وأعطيك غلامين أمردين خفيفين فى عملك وأعطيك كذا وكذا . . . » وأجزل له الوعد . قال آسره ؛ نعم قال : فأدخلنى على أميركم حتى يكون ذلك بمشهد منه ، فأدخله على أبي عبيد فشهد على ماتم . على أن قوماً من المسلمين عرفوه وقالوا لأبي عبيد اقتله فإنه الأمير . وأجابهم أبو عبيد : « وإن كان الأمير ، فإنى لاأقتله وقد أمّنه رجل من المسلمين : فالمسلمون فى التوادّ والتناصر كالجسد ، مالزم بعضَهم فقد لزمهم كلهم » .

عرفت بوران ماحل بجابان ، وعرفه رستم ، فأمر الجالينوس أن يسير لنصرة زملائه وأن يلحق نَرْسى بكسكر . وفصل الجالينوس يغذّ السير إلى غايته ، لكن أبا عبيد كان أسرع منه سيراً . فإنه مالبث حين هزم جابان أن أمر جنده بالسير لمواجهة نرسى . ولاقوه والمنهزمين الذين فرّوا إليه من النمارق بمكان يدعى السَّقاطيّة على مقربة من كَسكَر ، وذلك قبل أن يصله الجالينوس ، ولم يثبت نرَسى للمسلمين أكثر مما ثبت جابان ، ففر فى جنده تاركاً لعدوه مغانم كثيرة . وعرف أبو عبيد أن الجالينوس فى جنده قد بلغ قرية ، بَارُسْمَا فواجهه وهزمه ، ففر كما فر نرسى فى المنهزمين حتى بلغوا المدائن .

ووجّه أبو عبيد قوّاده ، والمثنى فى مقدمتهم ، فاحتلوا سواد العراق من أعلاه إلى أسفله ، وأذاعوا الرعب فى الناس ، وأعادوا إلى ذاكرتهم أيام خالد بن الوليد وفعاله . ورجع الدهاقين إلى أبي عبيد يصالحونه ويعتذرون عما كان منهم فى ممالأة الفرس على العرب ، ويذكرون أنهم غُلبوا على أمرهم ، فلم يكن لهم فيما حدث نهى ولا أمر . ولما أتم أبو عبيد الصلح معهم جاءوا بآنية فيها ألوان من طعام فارس الشهىّ وقالوا : هذا قِرًى لك وكرامة أكرمناك بها . قال : أكرمتم الجند بمثله وقريتموهم ؟ ! قالوا : لا ! فرده وقال : « لاحاجة لنا فيه ! بئس المرء أبو عبيد إن صحب قوماً من بلادهم وأهراقوا دماءهم دونه ، أو لم يهريقوها ، فاستأثر عليهم بشىء يصيبه ! لا والله لايأكل مما أفاء الله عليهم إلا مثلما يأكل أوساطهم ! » . ولم يأكل من طعام أتي به الدهاقين غداة ذلك اليوم حتى علم أنهم قربوا مثله لأصحابه .

أفاء اللّه على المسلمين بعد غزوة السّقاطية مغانم كثيرة ، بينها من الأطعمة مقادير

عظيمة ، فلم يفرحوا منها بشيء فرحهم بلون من التمر يدعى النَّرْسيان كان ملوك فارس يحبونه . وقد اقتسموه بينهم وجعلوا يطعمون منه الفلاحين . ثم بعثوا بخمسه إلى عمر بالمدينة وكتبوا له : « إن اللّه أطعمنا مطاعم كانت الأكاسرة يحبونها . وأحببنا أن تروها لتذكروا إنعام اللّه وإفضاله » .

وعاد المثنّى ودخل الحيرة واستقرّ بها وكله الرجاء أن يستتب له الأمر فيها كما استتب لخالد بن الوليد من قبل ، فقد ظل خالد بها سنة كاملة لم يجرؤ جيش من جيوش فارس على التصدى له فى أثنائها . ترى أيواتى الحظ المثنّى ما واتى خالداً ، فيقيم بالحيرة زمناً ثم يفتح المدائن ؟ كان ذلك كل أمله ، وكان له فى تحقيقه أكبر الرجاء .

لكن أمله سرعان ما ذوى . فقد عظم على رستم ، وفيه من الطموح والكبرياء ما ذكرنا أن تنهزم جيوش فارس أمام هؤلاء الأجلاف من العرب ، فسأل خاصته : « أىّ العجم أشد على العرب فيما ترون ؟ » : وأجابوه : « إنه ذو الحاجب بَهْمَن جاذويه » فدعاه إليه ووجهه على قوة عظيمة ، ورد الجالينوس معه وقال له : إن عاد لمثل مافعل فاضرب عنقه . وليظهر للناس مبلغ عنايته بالموقف وحرصه على رفع ماأنزل المسلمون بجند فارس ، جعل فى مقدّمة الجيش راية كسرى ، وكانت من جلود النمر ، عَرْضُها ثماني أذرع وطولها اثنتا عشرة ذراعاً ؛ وسار بهمن من المدائن يقصد مواجهة عدوه والقضاء عليه .

وتراجع أبو عُبَيْد وجنوده إلى قرية قُس الناطف ، فعبروا النهر إليها ، وتحصنوا ينتظرون عدوّهم بها . وأقبل بهمن عليهم فلم يكن إلا النهر بينه وبينهم ، ثم بعث إلى أبي عبيد يقول له : « إما أن تعبروا إلينا وندعكم والعبور ، وإما أن تدعونا نعبر إليكم » . وأشار أصحاب أبي عبيد ألا يعبر ، وأن يدع الفرس يعبرون . لكن أبا عبيد أخذته العزة فقال : « لا يكونوا أجرأ على الموت منا ، بل نعبر إليهم ! » . فناشده سَليط بن قيس ووجوه الناس وقالوا : « إن العرب لم تلقَ مثل جنود فارس مذ كانوا ، وأنهم قد حفلوا لنا واستقبلونا من الزُّهاء والعُدَّة بما لم يلقنا به أحد ، وقد نزلتَ منزلا لنا فيه مجال وملجأ ومرجع من فرّة إلى كرة » . فقال : « لا أفعل ! جُبنت واللّه إذاً » وجبُن سليطاً ، فردّ عليه سليط بقوله : « أنا واللّه أجرأ منك نفساً ، وقد أشرنا عليك بالرأى فستعلم » .

من عجب أن يقف أبو عبيد من أصحابه هذا الموقف ، وأن ينسى نصيحة عمر إيّاه أن يستشير أصحاب رسول اللّه ، وأن يُشركهم فى الرأى معه ، وأن يقيم لرأى سليط وَزْنه . وأعجب من ذلك أن ينسى قول عمر : « إنك تقْدَمُ على أرض المكر والخديعة والخيانة .

تقْدَم على قوم قد جرءُوا على الشر فعلموه ، وتناسوا الخير فجهلوه » ؛ وألاَّ يذكر أن الخليفة أمَّره ولم يؤمّر سليطاً لأن الحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث ، وسليط سريع إلى الحرب ، وفى التسرع إلى الحرب ضياع إلا عن بيان . لكنها الأقدار تُنسى البصير بصره ، والحكيم حكمته . ومن يدرى ! فلعل مشورة سليط بألاَّ يعبر المسلمون النهر إلى الفرس زادت أبا عبيد عناداً وتشبثاً برأيه . ولذلك أمر جنوده بالعبور فعبروا من المرْوَحة حيث تحصنوا ، إلى قُسّ الناطف حيث أقام الفرس ، وعبر سليط بن قيس فى مقدمة العابرين .

كان جند المسلمين دون عشرة الآلاف . مع ذلك ضاق بهم المكان الذى تركه لهم الفرس وراء الجسر ، فلم يكن لهم فيه مرجع من فرَّة إلى كرَّة . ولم يمهلهم بهمن حين تمَّ عبورهم أن أمر جنوده فحملوا عليهم ، وفى مقدمتهم الفيلة عليها الجلاجل . ونظرت خيول المسلمين إلى هذه الفيلة وسمعت رنين جلاجلها ، فأنكرت ما رأت وما سمعت ، وفرت فلم يثبت منها إلا القليل على كره . ورشق الفرس المسلمين بالنبل فقتلوا منهم خلقاً كثيراً . وحز الألم فى نفوس المسلمين لما أصابهم وألا يصلوا إلى عدوّهم . ورأى أبو عبيد أن صفوفه توشك أن تضطرب ؛ فترجل وترجل جنوده ، ومشوا إلى الفرس فصافحوهم بالسيوف فقتلوا منهم ستة آلاف ، فاشتد بذلك ساعدهم . لكن الفيلة تقدمت إليهم فجعلت لا تحمل على جماعة إلا دفعتهم . ونادى أبو عبيد رجاله أن يقطعوا بطن هوادج الفيلة وأن يقلبوا عنها أهلها وأن يقتلوهم ، ففعلوا فلم يتركوا فيلا إلا قلبوا رحله وقتلوا أصحابه . بذلك تداول الفريقان التقدم والتراجع ، فكانت المعركة سجالا بينهما ساعات من النهار .

كان أبو عبيد شديد الحرص على أن ينتصر ذلك اليوم . وزاده حرصاً ما كان من مخالفته سليط بن قيس والذين أشاروا عليه ألا يعبر الجسر إلى عدوه . فلو أن النصر تم للفرس لركبه عار الهزيمة وحده ، ولكان هذا العار مسبة الدهر له . لذلك كان مضطرب النفس تتداوله الانفعالات كلما تغير مصير المعركة : يغتبط ما رأى الفرس يتراجعون ، فإذا تقدموا ملكته خشية العار ودفعته للمغامرة . وقد اطمأن حين قلب جنوده عن الفيلة أهلها فلم يبق عليها من يقودها . لكنه رأى على مقربة منه فيلا أبيض عظيماً يضرب بخرطومه يمنةً ويسرة فيشتت المسلمين من حوله ، وكأنه بطل بارع يعرف مواقع ضرباته . وأيقن أبو عبيد أن قتل هـذا الفيل يقوى روح المسلمين ويضعضع روح الفرس ، فتقدم إليه فضرب خرطومه بسيفه . وهاج حر الضربة هائج الفيل ، فتقدم إلى أبي عبيد فضربه برجله فألقاه على الأرض ، ثم وقف فوقه فأزهق روحه . وكان أبو عبيد قد أوصى إن مات أن يتأمر مكانه

على التعاقب سبعة من قومه بنى ثقيف سماهم بأسمائهم . فلما رأى أولهم ما حل بأميره أخذ اللواء مكانه ، وقاتل الفيل حتى تنحى عن أبي عبيد ، فجر جثته إلى المسلمين ثم عاد يحاول قتل الفيل ، لكنه لقى حتفه كما لقى أبو عبيد حتفه . وتتابع الثقفيون السبعة كل منهم يأخذ اللواء فيقاتل حتى يموت[1] . عند ذلك خشعت أنفس الناس وضعفت روحهم ، وارتد كثيرون منهم إلى الجسر يبتغون النجاة بأنفسهم . وما بقاؤهم أمام جيش لا قبل لهم به ، وقد مات أمراؤهم فاختل نظامهم واضطربت صفوفهم !

ورأى المثنّى دقة الموقف فتقدم إلى اللواء فحمله . وهو لم يكن يطمع فى أن يقاتل وينتصر بعد الذى أصاب المسلمين ، إنما كان يرجو أن يرتد بهم فى نظام فيعبر النهر إلى المروحة ، ثم يرى بعد ذلك رأيه . وإنه ليدبر الخطة للتراجع إذ رأى عبد الله بن مرثد الثقفى يقطع الزوارق الأولى من الجسر ، ويصيح بأعلى صوته : « أيها الناس ! موتوا على ما مات عليه أمراؤكم أو نظفر » . ورأى الناس ما فعل ابن مرثد ، فتولاهم الفزع فتواثبوا فى النهر ، فغرق منهم من لم يصبر . وخشى المثنى أن تعم الفوضى ، فوقف واللواء بيده ينادى : « يأيها الناس ! أنا دونكم ، فاعبروا على هيئاتكم ولا تدهشوا ، فإنا لن نزايل حتى نراكم من ذلك الجانب ! » وأمر فجيء بابن مرثد فضربه وضمت السفينة التى قطعت فصلح الجسر ، فبدأ الناس يعبرون مرتدين ، والمثنى يقاتل دونهم ، ويحول هو ورجاله بين الفرس وبينهم . وأصابت المثنى وهو فى موقفه ذاك ضربة رمح جرحته وأثبتت فيه حلقاً من درعه . وقاتل معه أبو زيد الطائى النصراني دفاعاً عن المسلمين . ولم يكن سليط بن قيس دون المثنى إقداماً وجرأة . بذلك استطاع من بقى من جند المسلمين أن يعبروا إلى المروحة والمثنى واقف دونهم لم يزعزعه ذلك الجرح الذى أصابه . فلما رأى المثنى عبور أصحابه جميعاً سار فى مؤخرتهم ، تاركاً وراءه سليط بن قيس شهيداً ، يختلط دمه بتراب ذلك الميدان الذى تردى فيه ألوف من أبطال المسلمين .

تُرى أيعبر بهمن جاذويه النهر وراءهم فيقتلهم عن آخرهم ويعفّى فى أرض العراق على كل أثر للمسلمين ؟ ! أم يكتفى بهذا النصر الحاسم وله به عند رستم وبوران والفرس جميعاً فخار لم يتح لغيره من القواد مثله ؟ !

---

(١) ذكر الطبرى وغيره من المؤرخين أن دومة امرأة أبي عبيد كانت معه بالمروحة ، وأنها رأت فى منامها أن رجلا نزل من السماء بإناء فيه شراب من الجنه ، فشرب منه أبو عبيد وجماعة من أصحابه الثقفيين . وقصت دومة الرؤيا على زوجها فقال : هى الشهادة . وأوصى بمن يخلفه على قيادة الجيش .

لم يغب عن المثنّى أن ذا الحاجب قد يتعقبه ؛ لذلك انحدر مسرعاً بجنوده من المروحة إلى الحيرة ، ثم تابع انحداره إلى الجنوب يريد أليس ، وهو يحسب لمتعقبيه ألف حساب . وكيف لا يفعل وقد قتل من جند المسلمين فى الموقعة من قتل وغرق منهم فى الفرات من غرق ، وفرّ ألفان من أهل المدينة يريدون النجاة بأنفسهم ! لكن الأقدار التى غشّت على بصر أبي عبيد فدفعته ليعبر الجسر فيلقى حتفه ، ويورد المسلمين موارد الهلكة ، كانت أبر بالمثنى وأرفق . فقد بلغ ذا الحاجب والمعركة دائرة أن الفرس بالمدائن اختلفوا فرقتين ، إحداهما مع رستم ، والأخرى مع الفيرزان تناصب رستم العداوة . لذلك عاد بالجيش إلى العاصمة ، ولم يتخلف من قواده إلا جابان ومردانشاه فى كتيبة من الجند . وسار هذان القائدان يتعقبان المثنى وهما يحسبان أنهما قادران عليه . لكن أهل أليس أخبروا المثنى بما ترامى إليهم عن فارس ، فخرج فى رجاله وفى عدد كبير من أهل أليس ، فأسروا جابان ومردانشاه وأصحابهما ، وضرب أعناقهم جميعاً . وكذلك لقى جابان حتفه جزاء خدعه أبا عبيد يوم أسر بالنمارق فاستأمن آسره فأمنه . أما وقد غدر جابان فرجع يقاتل المسلمين ويخفر ذمتهم ، فقتله بعد أسره هو العدل بعينه .

كان أول من قدم المدينة من المسلمين الذين شهدوا غزوة الجسر عبد الله بن زيد .

ولقد رآه عمر بن الخطاب حين دخل المسجد فناداه : ما عندك يا عبد الله ؟ وسار عبد الله وألقى الخبر عليه فلم يبد جزعاً ، بل تلقاه ساكناً . ودخل بعض الذين فرّوا من الغزاة إلى المدينة منكسى رءوسهم خزياً من عار الهزيمة والفرار . أما سائرهم فنزلوا البوادى حياء أن يلقوا أهلهم فيعيّروهم فرارهم وجبنهم . ورأى عمر حالهم فرقّ لهم ورحمهم ، وجعل يدفع عنهم بَرَمَ الناس بهم وسخطَهم عليهم ، فكان يقول : « اللهم كل مسلم فى حلٍّ منى ! أنا فئة كل مسلم . مَنْ لقى العدو فَقَطَعَ بشَىء من أمره فأنا له فئة . يا معشر المسلمين لا تجزعوا ! أنا فئتكم وإنما انحزتم إلىّ . يرحم الله أبا عبيد ! لو كان انحاز إلىّ لكنت له فئة » . وكان معاذ القارئ أخو بنى النجّار ممن فروا من الجسر إلى المدينة ، وكان يبكى كلما قرأ قوله تعالى : « وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ » . فكان عمر يقول له : « لاتبك يامعاذ ! أنا فئتك ، وإنما انحزت إلىَّ » .

يذكّرنا موقف عمر من هؤلاء الذين فرّوا مرتدين إلى المدينة بعد هزيمتهم بالجسر بموقف رسول الله من الجند المسلمين الذين عادوا من غزوة مُؤْتة بعد إذ قُتل قوّادهم فيها ،

فداور خالد بن الوليد بمن بقى منهم وارتدّ بهم إلى المدينة غير منتصر على عدوه . فقد جعل أهل المدينة يَحثون على هذا الجيش التراب ويقولون : « يا فُرَّار ! فررتم فى سبيل الله ! » . فيقول رسول الله : « ليسوا بالفُرَّار ولكنهم الكُرَّارُ إن شاء الله » . ولم يكن ارتداد المسلمين بمؤتة كهزيمتهم بالجسر فظاعة وسوء أثر ، ولم يكن عمر كرسول الله رحمةً ورقة . مع ذلك كان رءوفاً بمن نُكِبوا فى الجسر ، بل كان فئتهم ؛ وقف بجانبهم ودافع عنهم ، وأبدى من العطف عليهم ما سكّن من رَوْعهم وخفف من عار هزيمتهم . ولا عجب ، وقد صارت إليه إمارة المؤمنين ، أن يكون بالمؤمنين رحيماً ، فيكون أبرَّهم بهم ، وأشدهم عطفاً على الضعفاء منهم ، وإن ظل شديدَ البأس على الأقوياء ، شديد البطش بالظالمين .

كان هذا شأن عمر ومن ارتدّوا من الجسر . أمّا المثنى فتحصَّن بألّيس زمناً بعد أن قتل جابان ومردانشاه وجنودهما . فلما أراح ظهرَه وجمّ جنوده ، جعل يفكر فى موقفه بالعراق ومصير المسلمين فيه . إنه موقف حَرِجٌ لا ريب . ومتى اطمأن الأمر فى بلاط المدائن فستعود الجنود متراصَّة تتقدّمها الفِيلةَ لتهاجمه . فماذا يصنع يومئذ ؟ أفكتب القدر فى لوحه أن يعود سلطان الأكاسرة إلى ما كان عليه ؟ إن يكن ذلك قضاء الله فلم يَعُدْ له ولا لجنده بالعراق بقاء ، وليس فى وسعه إلا أن ينسحب كما انسحب الذين فرّوا إلى المدينة ، وأن يعود إلى أرض قومه بنى بكر بن وائل يقضى بالبحرين بقية أيامه .

لكنه المثنى الذى قال عنه قيس بن عاصم المِنْقَرِىُّ حين سأل أبو بكر عنه : « هذا رجل غير خامل الذكر ، ولا مجهول النسب ، ولا ذليل العماد هذا المثنى بن حارثة الشيبانى » .

وقد كان له مواقف بالعراق ليست دون موقفه اليوم حرجاً ولا دقة . كان له مثل هذا الموقف أوّل ما جاء من البحرين إلى دلتا النهرين ، وذلك قبل أن يُمِدَّه أبو بكر بخالد بن الوليد . وكان موقفه أكثر دقة يوم فَصَل خالد من العراق إلى الشام لينسى الروم وساوس الشيطان . رجلٌ ذلك شأنه ليس بالذى يستسلم أو يُلقى بيديه مخافة ما تكنه الأقدار فى حجب الغيب ، فإنما هو قوة تُلقِى بها الأقدارُ لتوجيه مصاير العالم . فليعالج النكبة بما عُرِف عنه من دقة القائد الصبور المحنَّك ، وليستمد الخليفةَ فهو لا ريب مُمِدّه . والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث .

وكذلك وقف المثنَّى جَلْداً جريئاً ، يواجه الأيام السود التى أعقبت غزوة الجسر وكادت تعفِّى على سلطان المسلمين بالعراق . ولم يكتفِ بأن بعث إلى عمر يطلب المدد ؛ فمجىء الجند من المدينة يقتضى زمناً قد يواثبه الفرس فيه . بل بعث فيمن يليه من قبائل العرب ،

فتوافوا إليه فى جمع عظيم ، بينهم نصارى بنى النمر الذين قالوا : نقاتل مع قومنا . ونقل عسكره من أليس إلى مرج السباخ بين القادسيّة وخفّان ليكون على مقربة من تخوم العرب ، يلجأ إليهم إذا غلبه الفرس ، ويلقى عندهم مدداً جديداً إذا غلب الفرس. وما كان أشدّ حاجته إلى المدد ليتابع ظفره ! وفى مرج السباخ اجتمع إلى عسكره عدد عظيم من الجند ، اطمأن له ، فأقام فيهم ينتظر ما اللّه فاعل بالفرس وبه .

لم يكن عمر بن الخطاب دون المثنّى قلقاً على موقف المسلمين بالعراق بعد غزوة الجسر ، ولم يغب عنه أن المثنى بحاجة إلى مدد سريع يواجه به هذا الموقف الدقيق . وكان العرب يفدون إلى المدينة من شتى الأرجاء فى شبه الجزيرة ملبِّين نداء الخليفة منذ رفع الحَظْر عمن ظهرت توبتهم من أهل الردّة . فندبهم عمر إلى العراق ، فجعلوا يتحامونه ويتثاقلون عنه ، ويُبدون الرغبة فى الشخوص إلى الشام والاشتراك فى غزوه . لكن خالد بن الوليد كان قد ظفر بالروم فى الشام حين لاقوه على اليرموك ، فلم يكن به من حاجة إلى مدد . لذلك لم يرض عمر أن يُشخصهم إلى الشام ، ولم يرغب أحد فى الشخوص إلى العراق . وكان جرير بن عبد الله البَجَلِيّ قدِم على أبى بكر فى خلافته ، فذكر عِدَةً له من رسول الله أن يجمع بنى بجيلة وكانوا مشتتين فى القبائل ، فردّه أبو بكر وقال له : « ترى شغلنا ومانحن فيه بغَوْث المسلمين ممن بإزائهم من الأسَدَيْن فارس والروم ، ثم أنت تكلفنى التشاغل بما لا يُغنى عما هو أرضى للّه ورسوله ! دعنى وسِرْ نحو خالد بن الوليد حتى أنظر ما يحكم اللّه فى هذين الوجهين ! » . فلما ولى عمر أعاد عليه جرير عِدَةَ رسول اللّه ، وأقام عليها البيّنة . فكتب عمر إلى عُمّاله ، فجعلوا بنى بجيلة فى صعيد واحد . فلما اجتمعوا قال عمر لجرير : « اخرج حتى تلحق بالمثنى » . فقال جرير : « بل الشام فإن أسلافنا بها » وأردف عمر : « بل العراق فإن الشام فى كفاية » . ولم يزل عمر يبنى بجيلة وهم يأبون عليه حتى جعل لهم الربع فى خمس ما يفيء اللّه على المسلمين يضاف إلى نصيبهم من الفيء. عند ذلك رضوا الذهاب إلى العراق وعليهم جرير ورأى الناس ما صنع بنو بجيلة فحذوا حذوهم ، وكان الذين فروا من غزوة الجسر فى مقدّمتهم ، ثم تابعهم بنو الأزد وعليهم عَرْفجة بن هرْثَمة ، وبنو كنانة وعليهم غالب بن عبد اللّه ؛ وخلق كثير من مختلف القبائل . وتحمّل الناس جميعاً ومعهم نساؤهم وأبناؤهم ، وساروا يريدون العراق ينضمون إلى جنده ويمدون المثنى فيه .

هذا موقف عمر بالمدينة ، وذلك موقف المثنى بالعراق ، فماذا كان موقف الفرس بالمدائن ؟ ترامت إليهم أنباء الأمداد التى تسير تباعاً إلى العراق ، فهالهم أمرها وأدركوا الخطر

عليهم منها ، فقسم رستم والفيرزان السلطان بينهما ، وجمعا جنداً عظيماً جعلا عليه القائد مهران الهَمَذاني ، وأمراه أن يسرع السير للقاء هؤلاء الغزاة المسلمين . وسارت هذه القوات تتقدّمها الفيلَة ، ومهران أحرص الناس على أن يُحرز نصراً ينسى الفرس نصر ذى الحاجب فى غزوة الجسر . وعرف المثنى مسيرة هذا الجيش وهو فى عسكره بمرج السباخ ، فأرسل إلى جرير بن عبد الله وإلى غيره من الأمراء الذين جاءوا يمدونه يقول : « إنا جاءنا أمر لم نستطع منه المقام حتى تقدمَوا علينا ، فعجِّلوا اللحاق بنا وموعدكم البُوَيْب[1] » ثم سار بقوّاته حتى انتهى إلى البويب على شاطئ الفرات حيث وافاه جند المسلمين جميعاً . وسار مهران كذلك بقوّاته حتى كان قبالة المسلمين لا يفصل بينهما إلا النهر .

أجال المثنى بصره فى قواته فاطمأن . فلئن لم يكن فيها من الفيلة مثل ما للفرس ، إنها لتمثل بمن انضم إليها من الأمداد قوات العرب جميعاً فى شبه الجزيرة وخارج شبه الجزيرة ؛ ففيها أولئك الذين استمدهم المثنى وهو بأُلَيس فأمدوه . وفيها بَجِيلة والأزد وكِنانة وغيرها من قبائل العرب الذين أجابوا نداء عمر ، وفيها من بنى النمر نصارى قدِموا مع أنس بن هلال وجُلاّب جلبوا خيلا . وفيها من تغلب نصارى جاءوا مع ابن مِرْدىَ الفِهْر التغلبي وجُلاّب جلبوا خيلا . وفيها غير بنى النمر وبنى تغلب رجال من قبائل عربية أخرى مقيمة بالعراق . هؤلاء جميعاً رأوا موقف العرب من العجم فقالوا : نقاتل مع قومنا . وكذلك جمعت رابطة الجنس إلى جيش المسلمين عدداً غير قليل من نصارى العراق وقفوا بجانبهم وحاربوا فى صفوفهم .

وبعث مهران إلى المثنى يقول : « إما أن تعبروا إلينا وإما أن نعبر إليكم » . ولم يكن المثنى قد نسى ما أصاب أبا عُبَيد حين عبر النهر يلقى ذا الحاجب . وكان عمر قد أهاب به بعد غزوة الجسر ألا يعبر نهراً قبل أن يتم له النصر . لذلك بعث إلى مهران أنِ اعْبُروا أنتم . وعبر الفرس إلى البويب وتعبئوا فى صفوف ثلاثة مع كل صف فيل .

وخرج المثنى على فرسه الشَّمُوس ، وكان لا يركبه إلا لقتال ، فإذا فرغ من القتال ودّعه . وكان الفَرسُ يدعى الشموس للين عريكته . وطاف المثنى راكباً فى صفوفه يعهد إليهم عهده ويحضّهم ويأمرهم بأمره ويحرّضهم ويهزّهم بأحسن ما فيهم ، فكان يقف عليهم رايةً رايةً يقول : « إني لأرجو ألا تؤتَى العرب من قِبَلكم . والله ما يسرّني اليوم لنفسي شيء إلا وهو يسرني لعامتكم » . فكانوا يجيبونه بمثل قوله . وإذ كان الشهر رمضان فقد نادى المسلمين :

---

(١) البويب : موضع يلى موضع الكوفة اليوم .

« أيها الناس إنكم صُوّام والصوم مَرَقّة ومَضْعَفة . وإني أرى من الرأى أن تُفطروا فَتَقْوَوْا بالطعام على عدوكم » . وأجابه الناس إلى ما طلب فأفطروا . وسمع المثنى من جانب الفرس زجلا يرددونه وهم يقتربون ، فقال : « إن الذى تسمعون فشل ، فالزموا الصمت وأتمِروا همساً » . وجعل الناس يستمعون إلى المثنى وهو يتحدث إليهم منصفاً إياهم جميعاً ، فلم يستطع أحد منهم أن يعيب له قولا أو فعلا ، بل ازدادوا له حبًّا وبه تعلقاً . فلما قال لهم : « إني مكبِّر ثلاثاً فتهيئوا ثم احملوا مع الرابعة » ، تهيأت الرايات جميعاً تنتظر الشَّدَّة على العدو وهى أشد ما تكون اغتباطاً بلقائه وحرصاً على الظفر به .

ولم يكد المثنى يكبِّر أوّل تكبيرة حتى أعجل الفرس العربَ وعاجلوهم فشدوّا عليهم . واختلّت لِشَدة الفرس بعض صفوف المسلمين من بنى عِجْل ؛ فأرسل المثنى من يقول لهم : « إن الأمير يقرأ عليكم السلام ويقول لكم لا تفضحوا المسلمين اليوم » . واعتدل بنو عجل وشدّوا مع سائر الجند على الفرس ، فأعادت شَدّتهم للصفوف نظامها . واشتبك الفريقان فى قتال دام ساعات أعنف قتال . ورأى المثنى أن المعركة تترجح حامية الوطيس بين الفريقين ، وأنها تؤذن أن تطول ، ففكر فى الوسيلة التى يكفل بها النصر للعرب ؛ وذلك بأن يحمل على قائد الفرس فيزيله عن مكانه أو يقتله . ولينفذ عزمه دعا إليه أنس بن هِلال النَّمِرى ثم دعا ابن مِرْدَى الفِهْرِ التَّغْلَبِى ، وقال لكل منهما : « إنك امرؤ عربي وإن لم تكن فى ديننا ، فإذا رأيتنى قد حملت على مهران فاحمل معى » . وحمل المثنى على مهران حملة صادقة فأزاله حتى دخل فى ميمنته . ورأى الفرس ما حدث فاندفعوا يحمون قائدهم فاجتمع القلبان وثار النقع ، فلا يعرف أىّ الفريقين لمن منهما الغلب . وانكشف الغبار لحظة رأى المسلمون فيها تراجع قلب الفرس ، فحملت عليهم الميمنة والميسرة فدفعوهم إلى ناحية النهر يبتغون النجاة . والمثنى فى أثناء ذلك يحرض جنده ويرسل إليهم من يقول لهم : « عاداتكم فى أمثالهم . انصروا الله ينصركم » فيزداد المسلمون حماسة وشدة على العدو وضرباً فى صميمه .

ولم يطق الفرس أن يثبتوا لهذا البأس فانهزموا وانقلبوا يولون الأدبار ، يريدون أن يعبروا الجسر . فلمّا رأى المثنى انهزامهم سابقهم إلى الجسر وسبقهم إليه وردهم عنه ، فازداد اضطرابهم ، فتفرقّوا تصعَّد جماعة على شاطئ النهر وتصوب أخرى . وحصرهم فرسان المسلمين وهم فى اضطرابهم فقتلوهم شر قِتلة . وبلغ من فزع الفرس وهم على هذه الحال أن كان الرجل من المسلمين يقتل عدة منهم فلا يرتد إليه أحد يحاول قتله ، حتى لقد سمى يوم

البويب هذا يوم الأعشار ؛ لأنهم أحصوا مائة رجل من العرب قتل كل واحد منهم عشرة من الفرس فى المعركة .

وظل المسلمون يتعقبون الفالّة من عدوهم يُمعنون فيهم قتلاً إلى الليل ، فلما أصبحوا عادوا يتعقّبونهم كرةً أخرى إلى الليل . بذلك أزهق فى البويب من الأرواح أكثر مما أزهق فى أية غزوة أخرى ، فكانوا يحزرون قتلى الفرس بمائة ألف ، بقيت جثثهم صَرْعَى طريحة فى الميدان حتى بليت وصارت عظاماً ، ثم بقيت دهراً طويلا لم تُدْفَن إلا بعد بناء الكوفة ، ثم عفى عليها التراب أزمان الفتنة .

انتصر المسلمون بالبويب كما ترى نصراً مبيناً . وكان اجتماع الناس على محبة المثنى من أسباب ذلك النصر ، بل كان أجلَّ هذه الأسباب وأعظمها . لقد رأوه يخوض الغمار قويّ اليقين جَرِىء الجنان ، ففعلوا فعله واستبسلوا استبساله ، فنصرهم اللّه . وكان الذين فرّوا من الزحف يوم الجسر يقاتلون لا يبالون الموت يريدون أن يتطهّروا من عار هزيمتهم ، فبينما كان المثنى يعدّل الصفوف للمعركة رأى أحدهم يتقدَّم صفَّه مندفعاً نحو الفرس مستقبلا ، فقرعه بالرمح وقال له : « لا أبا لك ! الزم موقفك ، فإذا أتاك قِرْنك فأغْنِه عن صاحبك ولا تستقتل » . وأجاب الرجل : « إني بذلك لجدير » ، واستقر ولزم الصف . وكان لسائر القوّاد والجنود مواقف بطولة تسجَّل بمداد الفخر . لمّا حمى وطيس المعركة اندفع مسعود بن حارثة أخو المثنى يخوض غمارها ، فصُرع قبل أن ينهزم الفرس فتضعضع من معه ، فرأى ذلك وهو دَنِفٌ فقال : « يا معشر بكر بن وائل ! ارفعوا رايتكم رفعكم اللّه ! لا يهولنّكم مصرعى » . وكان قبل أن يصاب قد قال لهم : إن رأيتمونا أصبنا فلا تَدَعوا ما أنتم فيه ؛ فإن الجيش ينكشف ثم ينصرف . الزموا مَصَافّكم وأغْنُوا غنَاء من يليكم » . وقاتل أنس بن هلال النمرى النصرانى حتى قتل . وحمل غلام نصرانى من التغلبيين على مهران فقتله واستولى على فرسه ثم انتحى يترنم بقوله : « أنا الغلام التغلبىُّ . أنا قتلت المرزبان » . ولما سبق المثنى الفرس إلى الجسر فمنعهم من عبوره حاز عرفجة بن هرثمة كتيبة منهم إلى الفرات . فلما أحرجوا كروا على عرفجة ورجاله وقاتلوهم قتال المستميت ونالوا منهم . فقال رجل لعرفجة : « لو أخرت رايتك ! » فكان جواب ابن هرثمة : « علىَّ إقدامها » ، وحمل بها على الفرس فولّوا نحو الفرات ، فما بلغه منهم أحد حيًّا . وجُرح من أعلام المسلمين يومئذ وقتل عدد غير قليل ، كما جُرح وقتل مثلهم من بنى النمر وبنى تغلب وغيرهم من عرب العراق . لكن النصر توّج استشهادهم فأبقى على التاريخ ذكرهم ، فهم أحياء عند ربهم يرزقون .

وانتهت المعركة ، فضم المثنّى أخاه مسعوداً وأنس بن هلال النصراني إليه ، وتوجّع لما أصابهما ، لم يفرق اختلاف دينهما من وجده عليه . ثم صلى على من استُشهد من المسلمين وقال : « والله إنه ليهوّن عليَّ وجدى أن شَهِدوا البويب . أقدموا وصبروا ولم يجزعوا ولم ينكلوا ، وفى الشهادة كفّارة » .

وجلس المسلمون أمسية فراغهم من المعركة مغتبطين يسمُرون . قال المثنى : « قاتلتُ العرب والعجم فى الجاهلية والإسلام . واللّه لمائة من العرب فى الجاهلية كانوا أشد عليَّ من ألف من العرب ، ولمائة من العرب اليوم أشد عليَّ من ألف من العجم ، إن اللّه أذهب بأسهم ووهّن كيدهم . فلا يروعنكم زهاء ترونه ، ولا قسِيٌّ فُجٌّ ولا نبال طوال ؛ فإنهم إذا أعجلوا عنها أو فقدوها كالبهائم أينما وجهتموها اتجّهت » وذكر بعضهم أخذ المثنى الجسر على الفرس وما أدّى ذلك إليه من إفناء جيشهم ، فلم يدع المثنى المتحدث يسترسل فى حديثه ، بل أنكر صنيع نفسه فى ذلك وأظهر الندم عليه وقال : « لقد عجزت عجزة وقى اللّه شرها بمسابقتى إياهم إلى الجسر حتى أحرجتهم ؛ فإني غير عائد فلا تعودوا ولا تقتدوا بى ، أيها الناس ، فإنها كانت منى زَلّة . لا ينبغى إحراج أحد إلا مَنْ لا يقوى على امتناع » .

وهذه العبارة من القائد المنتصر فى معركة عظيمة أزالت عن المسلمين عار معركة الجسر ، تشهد بشجاعة المثنّى وصراحته فى الحكم على نفسه ، كشجاعته فى قيادة المعارك وخوض غمارها . فلو أنه كان ممن يزدهيهم الفخر ويلعب بلبهم إعجاب الناس بهم لما قال منها كلمة . لكنه رأى الفرس الذين ارتدّوا عن الجسر يقتلون من المسلمين ويستميتون يريدون الثأر منهم ، فأسف لموت من مات من جنوده ، وندم على فعلته ، وقدر ما ربما كان يترتب على استماتة عدوه من انقلاب كفة النصر ، ثم كان جريئاً فى إعلان خَطَئه حتى لا يقع فى مثله غيره .

غنم المسلمون فى البويب مغانم كثيرة ، وأصابوا بقراً وغنماً ودقيقاً ، فبعثوا بها إلى عيالات من قدم من المدينة وقد خلّفوهن على تخوم شبه الجزيرة ، وإلى عيالات من أقاموا بالحيرة ممن سبق إلى العراق فى الأيام التى خلت قبل البويب والجسر . ورأى النسوة اللاتي أقمن على تخوم شبه الجزيرة إقبال الخيل عليهن تحمل الميرة ، فحسبنها غارة فقمن دون الصبيان بالحجارة والعمد . فقال عمرو بن عبد المسيح وكان مع القافلة : « هكذا ينبغى لنساء هذا الجيش » . واستأمن الرجال النساء وبشّروهن بالفتح ودفعوا إليهن ما جاءوا به ، وقالوا هذا أول المغنم .

وأمر المثنى القوّاد والرجال فانطلقوا فى السواد حتى بلغوا ساباط على مرأى من المدائن وجيوش الفرس تفرّ أمامهم فرار النعام لا تمنعهم من شيء ولا تمنع منهم أحداً . وانطلق المثنى بدوره فغزا الخنافس والأنبار أيام سوقهما ، فنال منهما ماشاء الله أن ينال من المغانم . وبلغ المسلمون دجلة وأغاروا على قرية بغداد وبلغوا تكريت ، وجعلوا كلما غزوا يقتلون المقاتلة ويسبون الذرّية ويستاقون الأموال ، حتى كان لهم من ذلك ما لا يحصى . بذلك دان لهم العراق كله كرّة أخرى . وقسم المثنى الفيء على الناس ، وفضّل أهل البلاء من جميع القبائل ، ونفّل بجيلة ربع الخمس تنفيذاً لعهد عمر ، ثم بعث بثلاث أرباعه إلى أمير المؤمنين بالمدينة .

استتب الأمر للمثنى كما استتب من قبل لخالد بن الوليد ، فانتشر المسلمون فى سواد العراق ينالون من رزقه وينعمون بخيراته . وأقام المثنى بالحيرة يفكر فيمن أفنت هذه الموقعة الضروس من جند المسلمين ، وفى الوسيلة لتعزيز الجيش بمن يقوم مقامهم فيه . ولعله لم يكن يستعجل المدد . فقد استولى الرعب على نفوس الفرس بعد ماكرثتهم البويب ، حتى لقد خيِّل إليه أن لا قيام لهم بعدها ، وأن خلافهم بالمدائن سيشتد على أثرها ، وأن الثورة ستشب بسبب هذا الخلاف فى كل أرجاء فارس فتوهن أمرها وتزعزع نظامها .

جدير بنا أن ندع المثنى يفكر فى موقفه ، وأن نفكر نحن فيما للبويب من دلالات على التاريخ ؛ فلهذه الغزوة أكثر من دلالة . لقد رأينا النصارى العرب من أهل العراق يقفون فى خطوط المسلمين يحاربون الفرس بالحمية التى يحاربهم بها المسلمون ، ورأينا المثنى يقول لأنس بن هلال النمرى : « ياأنس ! إنك امرؤعربي وإن لم تكن على ديننا ، فإذا رأيتنى حملت على مهران فاحمل معى » ، ثم يقول مثل هذا القول لابن مِرْدى الفهر التغلبي . ألا يقطع ذلك بأن الحرب فى العراق لم تكن حرباً صليبية ، ولا حرباً إسلامية ، وأن الدين لم يكن هو الذى أثارها ، وإنما أثارها حرص العرب على أن يتخلص بنوجنسهم من النير الأجنبي الذى ركبهم قروناً طويلة ، وأن يكون الجنس العربي وحدة سياسية أينما كانت منازله ؟ أحسب الأمر واضحاً فلا سبيل إلى الريبة فيه . والاعتبارات التى أثارت الحرب فى العراق هى التى أثارت الحرب فى الشام . أما الفتح لنشر الإسلام بالسيف فلم يدر بخاطر أبي بكر ولا بخاطر عمر ، وإن دار بخاطرهما أن تكون الدعوة إلى الإسلام حرة لا يقف فى سبيلها عائق من العوائق .

ذلك أن الدعوة إلى الإسلام بقوة السلاح لا تتفق ومبادئ الإسلام ، ولا يقرها الكتاب

الذى أوحاه الله إلى رسوله . وقد كان النبي وخلفاؤه يذكرون دائماً قوله تعالى : (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) ، وقوله تعالى : (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) . وإنما انتشر الإسلام تبعاً لاتساع رقعة الفتح ؛ لأن أهل البلاد المفتوحة رأوا مبادئ هذا الدين القيم فأكبروها ثم اعتنقوها ، عن بينة وتفكير حيناً ، وتشبهاً بالرجال الذين أتوا بالمعجزات فى الفتح وفى الحكم حيناً آخر . فإذا صح لهذا السبب أن نقرن انتشار الإسلام باتساع رقعة الفتح ، فلا صحة لما يقال من أن هذا الفتح كانت غايته نشر الإسلام ببطش السيف .

هذا بعض ما تدل عليه غزوة البويب . وهى تدل كذلك على أن ما كان بين العرب والفرس من خصومة قد بلغ حداً لا رجاء معه فى صلح ولا فى هدنة . فقد جاءت البويب على إثر غزوة الجسر حيث انهزم المسلمون هزيمةً نكراء ، فمحت آثار هزيمتهم وجعلت كلمتهم العليا ، وألقت فى نفوس الفرس الرعب وهدّت عزيمتهم . مع ذلك لم يفكر المسلمون فى التسليم ولا فى الصلح اثر غزوة الجسر ، ولم يفكر الفرس فى التسليم ولا فى الصلح إثر غزوة البويب . فلم يكن بدٌّ من أن تتصل الحرب حتى يذعن أحد الفريقين دون قيد أو شرط .

ولهذا لم يلبث الفرس حين زال عنهم روع البويب أن عادوا يفكرون فيما يوشك أن يصير إليه أمرهم إذا ظلوا فيما هم فيه من فرقة وانقسام . ولقد خيل إليهم أن هؤلاء الغزاة من العرب سيدخلون عليهم عاصمة ملكهم ، ويفتضون عليهم كل حصونهم ، ويُخضعون أبناء كسرى لسلطانهم ، إلا أن تكون المعجزة فتتحد كلمتهم ليواجهوا الغزاة ويجلوهم عن أرضهم . وكيف لكلمتهم أن تتحد ورستم والفيرزان يتنازعان السلطان ، والأمراء والدهاقين منقسمون تؤيد طائفةٌ أحد المتنازعين وتؤيد الأخرى منافسه ! لذا ذهب أهل الفرس إليهما جميعاً فحذّروهما عاقبة اختلافهما وما يجره على فارس من وهن يعرّضها للهلكة . « فما بعد بغداد وساباط وتكريت إلا المدائن ! » . ثم إنهم أنذروهما قائلين : « والله لتجتمعان أو لنبدأنّ بكما قبل أن يشمت بنا شامت ! » .

وتشاور الفيرزان ورستم فاستكتبا بوران كتاباً إلى نساء كسرى وسراريه ، فجاءوا بهن وعرفوا منهن أن لم يبق ذَكَرٌ من ذرية كسرى إلا يزدجرد بن شهريار بن كسرى وكانت أمه قد أخفته عند أخواله حين قتل شيرى جميع الذكور من ذرية أبيه . فجاءوا به ، وهو يومئذ فى الحادية والعشرين من عمره ، فجعلوه على عرش أجداده واجتمعوا عليه وتباروا فى

معونته ، فاطمأنت فارس بعد انزعاجها ، وأخذت تُعِدّ العدة كيما تثأر لكرامتها وشرفها .

وترامت إلى المثنّى أنباء الفرس فزايلته طمأنينته ، وأيقن أن أهل السواد لن يلبثوا أن ينتقضوا على المسلمين إذا سارت جيوش الفرس نحوهم ، فكتب إلى عمر بالمدينة يذكر له ما عنده وما يتوقع من ثورة وانتقاض . لكن كتابه أبطأ قبل أن يبلغ عمر . وتجهز الفرس ، فأثار تجهزهم قرى العراق ومدنه ، فلم يجد المثنى بدًّا من أن ينسحب كرة أخرى إلى تخوم شبه الجزيرة ، فسار فى جنده حتى نزل بذى قار ، وجمع ما استطاع من النَّاس فى عسكر واحد ، ثم أقام ينتظر مدد الخليفة ليعود من جديد ويفتح المدائن .

ولما وصل كتاب المثنى إلى عمر وعرف تجهّز العجم بعد أن اجتمع أمرهم واتحدت كلمتهم قال : « واللّه لأضربن ملوك العجم بملوك العرب ! » . وكتب إلى المثنى ومن معه يأمرهم بالخروج إلى تخوم العراق والتفرق فى المياه التى تلى العجم ، وأن يستمدوا أهل النجدة ليكونوا معهم حتى لا يبغتهم الفرس وهم فى غير عدد وعُدَّة .

نزل المثنى بذى قار ، فلم يفكر الفرس فى السير لمواجهته . وهناك أقام حتى أدركه سعد ابن أبي وقاص ، إذ جاء أميراً على الجيوش التى جهزها عمر ليُجْهِز بها على فارس . لكن مقام المثنّى مع سعد لم يطل ؛ فقد نغر عليه الجرح الذى أصابه يوم الجسر وما زال به حتى قضى عليه . بهذا تجرى بعض الروايات وتجرى روايات أخرى بأن المثنى قبض بذى قار قبل أن يصل سعد إلى العراق ، وأنه ترك لسعد وصية نورد حديثها فى موضعه .

والآن وقد قُبض المثنى فحقّ علينا أن نختم هذا الفصل ، وقبل أن نندفع مع الحوادث فى تيارها الجارف ، أن نقف هنيهة على قبر هذا القائد القادر نودّعه ونوفيه بعض حقه .

فقد حمل هذا الرجل عن المسلمين فى حرب الفرس عبئاً لم يحمل أحد مثله . كان أول مسلم ذهب إلى دلتا النهرين فدعا أبا بكر للتفكير فى فتح العراق ، ولولا ذهابه إليها ومغامراته فيها لما فكر الخليفة فى مواجهة فارس . وقد فتح مع خالد بن الوليد ما شاء اللّه أن يفتحاه من سواد العراق . ولولا إقدام ابن حارثة وحسن رأيه وبراعة قيادته لما استطاع بعد أن ذهب خالد إلى الشام أن يثبت للفرس وأن يواجههم .

ولقد أوصى أبو بكر عمر بعد ذلك أن يندب الناس مع المثنى . فكان طبيعيًّا أن يتولى المثنى إمارة القوات التى تسير إلى العراق لنجدته ، فهو الذى عرف مداخله وسار فى أرجائه ، فله من الجرأة على أهله ما ليس لغيره . ولو أن أبا بكر عاش لما أمَّر أحداً غيره . لكن عمر

أمَّر أبا عبيد لأنه كان أول الناس انتداباً ، ولأنه كان ثقفيًّا من أهل الحجاز ! وكان المثنى من بكر بن وائل . أفغضب المثنى لذلك أو حزَّ فى نفسه أن خالف عمر وصية أبي بكر فى أمره ؟ كلا ! بل سما بتفكيره فوق هذا الاعتبار ، وقدر تعصب أهل الحجاز لبنى وطنهم ، فسبق أبا عبيد إلى العراق ثم سار تحت لوائه ، فانتصر معه يوم النمارق وحمل اللواء بعد مقتله ومقتل أصحابه يوم الجسر ، ثم انسحب إلى أليس ، حتى جاءه المدد وكان يوم البويب قاد الموقعة ببراعة تعيد إلى الذاكرة فعال خالد بن الوليد فى أعظم غزواته .

وتأمير عمر أبا عبيد على المثنّى من الخطوات الأولى التى أقر بها أمير المؤمنين نظام الطبقات بين المسلمين . وقد يلتمس لعمر من العذر عن هذه الخطوة أن أبا عبيد تقدَّم حين أحجم غيره ، فكان أول الناس انتداباً . لكن الواقع أنها كانت خطوة تتفق وتفكير عمر . يشهد بذلك أن جرير بن عبد الله البجلىَّ ذهب فى أعقاب غزوة الجسر مدداً للمثنى . فلما عرف المثنى أنه مرَّ قريباً منه كتب إليه أن أقبل إلىَّ فإنما أنت مدد لى . وردَّ عليه جرير : « إني لست فاعلا إلا أن يأمرنى بذلك أمير المؤمنين . أنت أمير وأنا أمير » . وكتب المثنى إلى عمر يشكو جريراً ، فرد عليه أمير المؤمنين بقوله : « إني لم أكن لأستعملك على رجل من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم » . ولما وجّه عمر سعد بن أبى وقّاص إلى العراق كتب إلى المثنى وإلى جرير أنه أمرَّ سعداً عليهما . ذلك أن سعداً كان من السابقين الأولين إلى الإسلام ، وكان عمر يرى السابقين الأولين إلى الإسلام طبقة تفضل غيرها من سائر طبقات المسلمين .

لم يغضب المثنى لتأمير غيره عليه . ذلك لأنه كان مؤمناً حسن الإيمان ، كما كان جنديًّا باسلا يقدر معنى النظام وطاعته ، ويسمو بالنظام وبالإيمان جميعاً على أهواء النفس وشهواتها . على أن إقصاءه عن إمارة الجيش لا يغضُّ من قدره ، ولا يمحو ما سجل التاريخ له فى صحفه . فإن يكن خالد بن الوليد عبقرى الحرب وسيف الله ، فالمثنى بن حارثة هو السابق الأول إلى فتح العراق ، وهو القائد المحنَّك الذى حمل العبء فى أشد مواقف المسلمين به دقة ، وهو الحكيم الذى جمع قلوب العرب من أهل العراق حوله مع أنهم لم يكونوا على دينه ، فاستطاع بما صنع من ذلك أن يضرب الفرس فى البويب ضربة لم يفيقوا منها ولم ينتصروا قط بعدها .

ويزيد المثنى فخاراً أنه أتم ذلك كله فى زمن ما أقصره . فقد بلغ أبو عبيد تخوم العراق مستهل الخريف من سنة أربع وثلاثين وستمائة لميلاد السيد المسيح ، فانتصر بالنمارق فى أوائل

أكتوبر من تلك السنة ، وقُتل بالجسر فى أخريات الشهر نفسه ، فتولى المثنى القيادة وانتصر بأليس ثم انتصر نصره الحاسم بالبويب فى شهر نوفمبر . ولو أنه جاءه المدد فى أعقاب البويب لسار إلى المدائن ففضّها قبل أن يطوى ذلك العام أيامه . لكن المدد أبطأ عليه ، ثم إن الموت عاجله ، فمات وقد عقد النصر على هامته إكليلا من الفخار باقياً على الدهر ما بقى الدهر .

والآن وداعاً أيها القائد القادر وفى ذمة الله ! ولنترك الآن ميدانك يدوى بآيات نصرك لنقف بالشام إلى جانب صاحبك ابن الوليد ! وليذكر الناس جميعاً على تعاقب الأيام أن المثنى بن حارثة الشيبانى كان الطليعة فى التمهيد للإمبراطورية الإسلامية ، ثم كان من بُناتها ذوى الحكمة والأيد . ولن يغض من عظمة صنيعه فى بنائها أنه لم يكن قرشيًّا ، ولم يكن من أصحاب رسول الله ، وأنه لم يتولّ إمارة الجيش بعد خالد . فقد تولاها بالفعل فى البويب فكان فيها نداً لخالد إقداماً ، ولعله كان فيها أكثر من خالد تسامحاً وحكمة .